النهار
٢٠٠٣/٦/٦

الطـريــق الى الخريطـة

ما من عربـي معنـيّ بالقضـية الفلسطينية إلاّ يرتـاب أمـام مـا سمّي "خريطـة الطريـق". ولكـن مـا من عربي معنيّ بمصير الشعب الفلسطيني إلا يلمس الفرصـة التي توفّرها هذه الخطة الاميركية - الدولية من أجل الحد من معاناته، إن لم يكن من أجل إيقافها، ومن أجل وضعه مجدداً على سكّة الأمل.
مصادر الريبة عديدة، ولعل أهمها الأساس الذي استندت اليه الخطـة، أي الإرادة الأميركيـة. فلا ذرّة من الثقـة توحيهـا إدارة أميركيـة أمضـت عامهـا الأول من دون أدنـى التفاتـة جديّـة الـى ملـف الشـرق الأوسط، ولم تخرج من لامبالاتها سوى لإطلاق يد شارون في سعيه العنيف الـى نقل "الحـرب علـى الارهـاب" الـى سـاحة النضـال الفلسطيني. ومـا التضـخيم الـذي جـرى لبدايـة الاستفاقة الأميركيـة الـى وجوب تلبية بعض تطلعات الشعب الفلسطيني الا دليل آخر على الاستخفاف الأميركي.
صحيح ان تعبير "رؤية الرئيس بوش" كان يراد منه بدايةَ الإيحاء أن الجبل لم ينتظر كل هذه الفترة الا لأنه كان في مرحلة المخاض. لكن الترداد الطلسمي، حتى لا نقول الأبله، لهذه الرؤية علـى ألسنة المسؤولين أو المعلّقين الأميركيين، اذا كان يشير إلى التـزام واشـنطن الرسمي لفكرة الدولتين، وهـي التـي سـبقت اليهـا الـرئيس بـوش معظـم دول العـالم، فانـه ينـذر أيضـاً بمنطـق استعلائي قد يقـود غـداً الأميركيين الى التعجب والغضب من اصرار الفلسطينيين والعرب علـى مـا لا تلحظـه "الرؤيـة" ومـا قد يعدّونه "تفاهات"، ولو في حجم قضايا القدس وعودة اللاجئين والتواصل الترابي للدولة الموعودة.
ولا بد من التذكر هنا ان هذا تحديداً ان حصـل فـي كمـب ديفيـد مـع "العـرض السـخي" لإيهـود بـاراك والغطـاء الـذي منحـه إيـاه الـرئيس السـابق كلينتـون مـن خـلال القائـه اللـوم علـى ياسـر عرفـات، فكـم بـالحري عنـدما يكـون العـرض الاميركـي "السـخي" موسـوماً بطـابع "الرؤيـة" شـبه الرسـولية؟ ثم أن ابهام "الرؤية" بيّن منذ الآن. فقد أتـاح لشـارون التلطـي فـي غياهبهـا، ممـا زاد مـن الريبـة التـي اثارتها خريطة الطريق ولا تزال.
فإذا لم يكن جائزاً الاستخفاف بوصول شارون الى لحظـة الاعتـراف بضـرورة قيـام دولـة فلسطينية، ضـد أركـان حزبـه والاقتنـاع العميـق لمعظـم وزرائـه، فإنـه يظـل قـادراً علـى المزاوجـة بـين إقـراره بـ"الرؤية" وخريطة الطريق المفضية إليها ووعوده لغلاة المتطرّفين بـأن حكومـة اسـرائيل ستستمر تبني لهم ولأولادهم المستعمرات على الأرض التي يفترض ان تقام عليها الدولة الفلسطينية. وهـا هـو شارون ينجح، الى ذلك، في أن يزج في "الرؤية" حجر عثرة جديداً من خلال مطالبتـه الفلسطينيين بالاعتراف باسرائيل كدولة يهودية، وهو الامر الذي لا يقل خطورة عن العقبـات التـي يضـعها امـام قيام الدولة الفلسطينية.
وبعدما بـارك الـرئيس بـوش هذا الملحق لـ"الرؤيـة"، يمكن التنبـؤ بـأن مسـألة يهوديـة دولـة اسـرائيل مرشـحة لأن تأخـذ حيّـزاً اكبـر فـأكبر. والحـال ان هـذه المسـألة لا تعنـي فقـط تعريضـاً لوضـع الأقليـة العربية الفلسطينية داخل حدود دولـة اسـرائيل، وعائقـاً امـام حـق العـودة للاجئين. فهـي تسـاوي ايضـاً منـح اسـرائيل شـرعية اخلاقيـة مـع مفعـول رجعـي تبـرر قيامهـا عـام ١٩٤٨ وتنـزع شـرعية المقاومـة العربية الفلسطينية للمشروع الصهيوني، مما يؤدي الى تنصل "الدولـة اليهوديـة" من مسؤوليتها عن طرد اللاجئين والى محو البُعد الوطني لحق العودة، وهذا للمناسبة ما يجب ان يدفع الصحافة العربية

النهار
٢٠٠٣/٦/٦

الى وقف استعمال تعبير "الدولة العبرية" او ما شابه. وفوق ذلك كله، فان الاصرار على اقرار عربي بيهودية دولة اسرائيل يعرض استقرار الشرق الأوسط برمته. ذلك انه لا يمكن تصوّر استقرار مع دولة مرشّحة لأن تنتقل فجأة، وبفعل "قانون العودة" الذي يمنح الجنسية الاسرائيلية كل يهودي يطأ ارضها، من ٥ ملايين نسمة الى ١٠ ملايين وربما ١٤ مليوناً، مع كل ما قد يعني ذلك من تجدّد لنزعتها التوسّعية على حساب جيرانها.

في مقابل التكريس "الرسولي"، الذي سارع بوش الى اضفائه على الشق الاسرائيلي من "الرؤية"، فإن الرئيس الاميركي مصرّ على مفاقمة الريبة العربية باحجامه، لا عن اضفاء الطابع الديني نفسه على الدولة الفلسطينية - فهو ليس مطلوباً - بل عن الاقرار بالبُعد الوطني الاستقلالي الذي يريده الفلسطينيون لها، لمصلحة مقاربة تركّز على الأحوال المعيشية، مع "رشة" من الديموقراطية على ذوقه. لا شيء يعبّر عن هذا الإمعان أكثر من إقصاء الرئيس ياسر عرفات عن التعاطي الأميركي مع خريطة الطريق.

قد يقول قائل ان من يشرب البحر لا يغصّ بساقية. ربما، لكن المسألة لا تتعلق بشخص عرفات، وهي قطعاً ليست تفصيلاً. فياسر عرفات هو الذي يجسّد في وقت واحد مسيرة البناء الوطني الفلسطيني، ان في الشتات او الاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وانحيازها الى الآليات الديموقراطية. هذا حتى لا نحكي عن غياب الحياء الذي يدفع رئيساً أميركياً فشل في الحصول على أغلبية أصوات الناخبين عنده الى التشكيك برئيس منتخب بتفوق، وفي ظل رقابة دولية، وبزعيم يتحدى مواطنوه منع التجوّل والرصاص والدبابات لحمايته بأجسادهم.

ويزيد من خطورة المسعى الاميركي الى اقصاء عرفات انه يتواصل الآن عبر الاشقاء العرب. والحق ان اكبر مصدر للريبة من خريطة الطريق هو هذا الوضع العربي المستمر في الانحدار. في الذكرى السادسة والثلاثين لحرب حزيران، لم يعد احد غير الفلسطينيين في منأى عن الهزيمة، بين دولة تستغيث بان لا ينساها رعاة الحل لانها تريد صداقة اميركا، وحكام بوركوا علناً بهذه الصداقة فعزموا على استحقاقها بتقديم كل تنازل يصرّ عليه الصديق الاكبر. ولعل أبلغ دليل على العجز العربي ان الوفد الفلسطيني كان أصلب عوداً في قمة العقبة من الوفود العربية الاخرى في شرم الشيخ.

ورغم كل ذلك، فإن خريطة الطريق تمثّل فرصة. قد لا تكون الوسيلة المضمونة لبلوغ الحل المتضمن الحد ادنى من العدل. فحتى لو أنجزت المرحلتين الاوليين بأكبر درجة من الامانة، سيبقى الحل النهائي مرهوناً بالقضايا الشائكة ذاتها التي افشلت قمة كامب ديفيد. غير ان الخطة الاميركية - الدولية هي بالتأكيد المعبر الوحيد المتاح راهناً لتثمير القدرة الجبّارة على الاستعصاء التي اظهرها مرة اخرى الشعب الفلسطيني في العامين المنصرمين. اكثر من ذلك، فان الامتناع عن اقتناص فرصة التهدئة لترميم ما دمّر من الحياة الوطنية الفلسطينية تحت الاحتلال المتجدّد يهدّد بان يذهب الاستعصاء الفلسطيني سدى، ضحية استنزاف لا ينتهي.

وفي الوقت نفسه، تتمتع خريطة الطريق بميزة تقنية قابلة للترجمة السياسية. فهي تشكل اطاراً لاستعادة العلاقات المباشرة بين السلطة الفلسطينية، ولو من دون حضور رئيسها، مع الادارة الاميركية، خصوصاً بعد تمركز هيئة المراقبين، الامر الذي قد يسمح بتظهير صلابة الاستعصاء الوطني الفلسطيني امام أعين الحكم الاوحد، وتالياً التخفيف ولو قيد انملة من انحيازه الى اقصى التطرف الاسرائيلي.

من جهة اخرى، فان الاجراءات المطلوبة من اسرائيل في خريطة الطريق لجهة تفكيك عدد محدود من المستوطنات تمثّل مكسباً معنوياً لا يمكن الاستهانة به. طبعاً، ليس مستبعداً على الاطلاق ان يستغل شارون ما يصفه بالمستعمرات غير الشرعية لاضفاء الشرعية على المستعمرات الاقدم،

النهار
٢٠٠٣/٦/٦

وليبين للولايات المتحدة استحالة فعل اكثر من ذلك. بيد ان تفكيك هذه المستعمرات، في ظل حكومة محكومة بالهوَس التوراتي سيشكل قطيعة رمزية مع هذا الفكر الاصولي الذي جاء في السبعينات من القرن العشرين يفاقم السياسة الاستئثارية الكامنة في العقيدة الصهيونية، فضلاً عن انه يعني انه يمكن الرجوع عن الامر الواقع الاستعماري الذي ما انفكت اسرائيل تتسلح به منذ ١٩٦٧. وقد يؤدي هذا التكذيب لعقيدة "نقطة اللارجوع" الى زيادة التناقضات التي تعتمل في المجتمع الاسرائيلي الخاضع اكثر فاكثر الى التفتيت لاسبابه الذاتية، ولكن ايضاً بسبب عجزه عن الحاق الهزيمة النهائية بالفلسطينيين.

وتبقى الميزة الاهم لخريطة الطريق في كونها تكرّس في الوعي الاسرائيلي، ورغم الاخذ والرد في خطاب شارون، فكرة التجاور مع دولة فلسطينية كحل وحيد للصراع. وهذا ما قد ينعكس، اذا نجحت التهدئة ميدانياً، في اعادة الزخم الى التيار الاكثر اعتدالاً في اسرائيل، وصولاً الى اعادة بناء معسكر للسلام اكثر فاعلية وتراصاً وصدقاً مما مضى.

مرة اخرى، ان بداية تطبيق خريطة الطريق لا تعني آلياً انجاز "الرؤية" التي نصّت عليها، خصوصاً اذا اخذنا في الاعتبار، بالاضافة الى الصعوبات الميدانية المقبلة والطابع الحاد لخلافات الحل النهائي، احتمال تباطؤ الاندفاع الاميركي مع حلول السنة المقبلة ودخول ادارة بوش في الاجواء الانتخابية. لا بأس، فالتباطؤ بعد اشهر ليس بالضرورة سيئاً، شرط ان تكون المرحلة الاولى قد اوتيت ثمارها، وايضاً وخصوصاً شرط الا يبدو هذا التباطؤ نتيجة السلوك الفلسطيني. فرغم غياب اي احتمال لتحسن الموقف العربي العام في الأمد المنظور، قد يفيد التباطؤ، اذا حصل، في تحسين الموقع الفلسطيني، على الاقل لأن تجميد الهجمة اليمينية الشارونية يفتح الباب امام منطق اكثر عقلانية في اسرائيل، ولا سيما بعدما تكرست فيها رسمياً فكرة الدولة الفلسطينية.

ان نجاح خريطة الطريق، ولو جزئياً، في تثمير الجهود الهائلة التي بذلها الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال في حرب استقلاله، ليس فقط رهنا بالظروف الاسرائيلية او الدولية، بل هو يتطلب سلوكاً متماسكاً من القادة الفلسطينيين. ذلك ان الطريق الى تطبيق خريطة الطريق يمر قبل كل شيء بتوافر قرار فلسطيني واحد.

وتعني احادية القرار طبعاً ان يمتنع جزء من الشعب الفلسطيني عن ادعاء التحكم في كل مستقبله. بكلمات اوضح، ان سعي "حماس" و"الجهاد الاسلامي" الى فرض اولوياتهما واشكال نضالهما على العمل الوطني يعرض الانجاز المتحقق منذ الآن مع عودة الادارة الاميركية الى الاهتمام بالصراع في فلسطين، فضلاً عن كونه يتعارض مع ما تظهره استطلاعات الرأي التي نشرت بعد الاعلان الرسمي عن خريطة الطريق، ويضرب عرض الحائط بالديموقراطية الفلسطينية التي انتخب على اساسها ياسر عرفات، في انتظار ان تجري انتخابات جديدة. لكن احادية القرار تعني ايضاً الا تعمل الحكومة الفلسطينية في معزل عن روح المؤسسات.

وينطبق ذلك اولاً على رئيس الحكومة محمود عباس الذي يخوض تجربة صعبة ولا شك. فرغم الاغراءات الاميركية والنيّة المعلنة في واشنطن لاقصاء ياسر عرفات، يعرف محمود عباس اكثر من غيره انه ليس في وضع مساكنة مع رئيسه، كما في فرنسا عندما يكون رأسا السلطة التنفيذية من حزبين مختلفين او كما في ... لبنان. بل انه يعرف بفضل تجربته الفريدة في حركة "فتح" ومنظمة التحرير، ونضاله ضمنها ضد كل مشاريع "القيادات البديلة" ان سياسته لن تنجح الا بقدر ما يرفض ان يحمل صفة البديل ليكون الوكيل عن الاصيل الغائب ضد ارادته. اما اذا حضر الاصيل، مثلما يحصل لدى استقبال الوزراء الاوروبيين الذين يرفضون التخلي عن رئيس السلطة الوطنية، فان اسوأ ما يمكن ان يفعله محمود عباس هو السعي الى "كيانية مستقلة" يستقبل بموجبها الضيوف وحده، بدل ان يجلس الى الطاولة نفسها ضمن الوفد الاوحد الذي يترأسه عرفات.

النهار
٢٠٠٣/٦/٦

سمير قصير

النهار
٢٠٠٣/٦/٦

Id-Reference	**03-Pr-000690**	
Media	**(Support)**	HC
Title		الطريق الى الخريطة
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٣/٦/٦ 6/6/2003
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	اريل.شارون – جورج.بوش – ايهود.باراك – بيل.كلينتون – ياسر.عرفات – (ابو.مازن) – محمود.عباس
	Locations	فلسطين – اسرائيل – ولايات.متحدة – شرق.أوسط – قدس – عقبة – شرم.شيخ
	Dates	١٩٤٨ – ١٩٦٧
	Themes	فلسطين – عرب – خريطة.طريق – قضية.فلسطين – نضال.فلسطيني – حرب.حزيران – دور.عرب – حرب.على.ارهاب – شرق.أوسط – جورج.بوش – قمة.عقبة – اسرائيل – صراع.عربي.اسرائيلي – آريل.شارون – قمة.كمب.ديفيد – ولايات.متحدة – قانون.عودة – عودة.لاجئين.فلسطينيين – مشروع.صهيوني – فكر.أصولي.توراتي – كمب.ديفيد – حماس – جهاد.اسلامي – ياسر.عرفات – ديموقراطية – عقيدة.صهيونية – حركة.فتح – منظمة.تحرير – محمود.عباس.أبو.مازن
Subject		